مراجعـــات

المقاومة الفلسطينية في اربعة كتب

Hisham Sharabi, **Palestine Guerrillas, Their Credibility and Effectiveness** (The Institute for Palestine Studies, Beirut, 1970).

ميزة هذا الكتاب من حيث المنهج ، انه يقوم جزئيا على اسلوب علم النفس الاجتماعي (على الطريقة الاميركية) ، وهذا يعني قبـــل كل شيء تجريد الظاهرة المنوي درسها من سياقها الاجتماعـــي والتاريخي الشامل ، وحصرها في جانب ثانوي من جوانبها . والظاهرة المدروسة في الكتاب هـــي ظاهرة « الفدائيين الفلسطينيين » متمثلة ومحصورة في أمرين « الصدق » و« الفعالية » . ومن خلال المطالعة التحليلية لهذا الكتاب يتبين لنا ان الكاتب، الاستاذ شرابي ، قد خرج منذ البداية ، عـــن موضوعه ، اذ ان منهج بحثه غير الواضح والمحدد كفاية ، لم يسمح له بأن يدرك مضمون الفاعلية واشكالها وضوابطهـــا الاقتصاديـــة والاجتماعية والثقافية والعسكرية ، التي تتصل واقعيا بسلوكية الفدائيين واشكال تحركهم ونموهم ووعيهم التغييري عبر صراعهم . فمن قال للكاتب ان الفاعلية مبنية على الصدق ؟ اليس الصدق — بالمعنى الوثوقي الذي ذهب اليه — من اسباب كما هو من نتائج الفاعلية ؟ ان الكاتب لا يمكنه تجاوز علم الاجتماع والتاريخ حتى وان اراد ان يفهم ظاهرة نفسية اجتماعية ، فمثل هذه الظاهرة لا يمكن عزلها ، كما انه لا يمكن تبيان « صدق وفاعلية » الفدائيين الفلسطينيين من خلال تبيان الظاهرة ذاتها عند النقيض — اي عند الاسرائيليين — . ومن هنا بالذات كان افتقار عام في كتابه الى وحدة البحث، ومن ثم عدم توصله الى نتائج محددة بخصوص موضوعه الاصلي .

اما من حيث مضمون الكتاب فيبدو التشتت واضحا، اذ ان الكاتب وقد اختار فرضية بحث « صـــدق وفاعلية ... » ، انطلق فورا من تجريد عام للظاهرة المنوي درسها ، ومثال ذلك قوله : « ان الوثوق ، بمعنى صدق الشيء ، هو أداة مهمة في اي صراع ، وبخاصة في صراع يتنوع مشاهدوه وتكون نتائجه عالمية » . ألم يكن من واجب الكاتب ان يبحث اولا في الصراع ، ثم في القائمين به وليس في « المشاهدين » ، وانطلاقا من ذلك يحدد الفاعلية اولا ثم الصدق الناجم عنها ؟ وهنا لا بد من سؤال عام : ما هي ثقة الكاتب نفسه ؟ فاعليته ؟ وما هو مدى قدرته على الصدق ؟ ويزداد التجريد عند الكاتب باعتماده مقياس « اكثر » للعدو ، و« أقل» للعرب . وهنا نسأله : لماذا لا يحاول تقصي الواقع الفلسطيني الراهن طالمـــا انه يتناول فدائييـــه بالدرس ؟ ولماذا يجمد بحثه عند سطح الظواهر ولا يحاول — لكي يكون علميا على الاقل — كشف العلاقات القائمة بين مجمل ظواهر صراع الفدائيين الفلسطينيين والقوى المعادية لهم ؟ ان ضرورة مثل هذا البحث تعني اول ما تعني : التعمق في فهم دوافع ومعيقات الفاعلية الذاتية والموضوعية عند الفدائيين . الا ان الكاتب اكتفى بتحديد الكابح الاسرائيلي فقط .

ثم ينتقل فجأة الى باب « النقائص » . نقائـــص الاعـــلام الفدائي بصنفهـــا « قابلة للاصـــلاح » و « ذاتية » . ونقائص الاعلام الاسرائيلي يصنفها « كبت كلي للاخبار » ، « انكار كلي » ، « اختيار عفوي » . ومن النقائص ينتقل الى « افتراضات عن العرب » — افتراضات الاسرائيليين طبعا — التي يعتبرها الكاتب « اجتماعية علمية » . هكذا بكل بساطـــة دون ان يلاحظ الركام الميثولوجي والعنصري الذي يستندون اليه ضد العرب .ولكي لا تنكشف هذه اللعبة يقول : « ويبدو ان هـــؤلاء